

من أعلام تلمسان

الآبلي

681 – 757 هـ / 1282 – 1356 م

(انجازات و مواقف)

أ.قاسمي بختاوي

أستاذ في التاريخ الوسيط

جامعة حسيبة بن بوعلي . الشلف

يعتبر العهد الزياني رغم ما شهدته من فتن داخلية و صراعات خارجية، العصر الذهبي للمغرب الأوسط. ففيه بلغت الدولة ذروة عزها وأوج مجدها ومنتهى رقيها وازدهارها. ومن مظاهر هذا التطور الحركة الثقافية والفكرية النشيطة التي عرفتتها حاضرة تلمسان، نتيجة عوامل عديدة أبرزها: التزعة العلمية التي اتصف بها الكثير من سلاطين بني عبد الواد، أمثال يغمراسن بن زيان (633 – 681 هـ / 1235 – 1282 م)، الذي رغب العلماء في القدوم إلى عاصمته، وشجعهم على التدريس والتأليف؛ وابنه أبو سعيد عثمان بن يغمراسن (681 – 703 هـ / 1282 – 1303 م)، الذي سار على درب أبيه .

لقد عمل هؤلاء و غيرهم على استقطاب العلماء من كافة أرجاء المغرب الأوسط، ومن مختلف الحواضر المغربية والإسلامية كعلماء العدو الأندلسية، فأغدقوا عليهم الأموال والهدايا، وشيدوا لهم المدارس . ومن الأسماء اللامعة التي أسهمت في إثراء التراث الفكري بتلمسان الشيخ الآبلي، الذي سأحاول أن أبين من خلال مداخلتي بعضا من انجازاته و مواقفه .

مولده ونشأته :

هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري التلمساني، الشهير بالآبلي، ولد بتلمسان سنة 681/1282م. أصله من آبله¹، التي هاجر منها أبوه إبراهيم، وعمه أحمد إلى تلمسان، وانخرطا هناك في جيش يغمراسن الزياني. عمل إبراهيم بن أحمد – والد الآبلي – قائدا لحماية مرفأ هنين²، وتزوج من ابنة قاضي تلمسان أبي الحسن محمد بن غلبون، وأنجب منها ولده محمد المعروف بالآبلي³. نشأ في كفالة جده القاضي ابن غلبون، فشب على طلب العلم، مخالفا اتجاه أبيه الذي احترف الجندية، وانكب على الدراسة والتحصيل على جده وعلى علماء تلمسان، مبديا تفوقا في العلوم العقلية والنقلية قبل أن يرحل إلى المشرق والمغرب⁴.

حياته العلمية :

بدأها بمسقط رأسه تلمسان، حيث أخذ عن جده ابن غلبون علم الشريعة، وعن أبي الحسن التنسي علومًا شتى. وبعد غزو أبي الحسن المريني مدينة تلمسان وحصارها، غادرها الأبلي قاصداً المشرق، فأدى فريضة الحج، ولقي الكثير من العلماء منهم : تقي الدين بن دقيق العيد (625هـ - 702هـ)، وأبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن مرتفع الأنصاري المعروف بابن الرفعة (640هـ - 710هـ)، وصفي الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد الهندي (644هـ - 750هـ)، وأبو الحسن علي بن عبد الله تاج الدين التبريزي (ت 749هـ)⁵.

عاد إلى تلمسان أيام حكم السلطان الزياني أبي حمو موسى الأول، فدرس المنطق وعلم الأصول على يد أبي حمو عيسى بن الإمام. ونظرا لتفوقه في علوم الحساب، عرض عليه السلطان الإشراف على ضبط الجباية، فلم يرضه العرض. ولما أكره على ذلك، فر إلى فاس، فأخذ فنون التعاليم عن الشيخ خلوف المغيلي اليهودي، ثم توجه إلى مراکش، فدرس هناك على العلامة أبي العباس أحمد بن البناء علومًا مختلفة في المعقول والمنقول والتصوف. وبعدها استدعاه شيخ المسكرة علي محمد بن تاروميت أحد الوجهاء بجبل الأطلس، وأفاده بكثير من المعارف⁶. هكذا أصبح الأبلي شيخ العلوم النقلية والعقلية في عصره، وذلك بفضل ما أخذه عن علماء المغرب الأوسط، ثم رحلاته شرقا وغربا.

الآبلي ومهنة التدريس :

بدأ الآبلي التدريس بمسورة⁷، حيث التف حوله عدد كبير من طلاب العلم، فانتفعوا به كثيرا، وعظموه وأكبروه، وشكره أستاذه ابن البناء على نباهته وجهوده التعليمية. رحل بعد ذلك إلى فاس، فواصل التدريس بها، وذاع صيته. ولما احتل السلطان أبو الحسن المريني تلمسان سنة 737هـ / 1337م، بلغه نبوغ الآبلي في العلوم والمعارف، فاستقدمه من فاس، وضمه إلى مجلس علمائه، فعكف على تدريس العلوم العقلية، مساهما بذلك في تكوين جيل من العلماء الكبار بتلمسان. وبعد غزو أبي الحسن المريني لتونس سنة 748هـ / 1347م، تصدى الآبلي للتدريس بها، وتلمذ على يديه جموع من الطلبة منهم: أبو عبد الله عرفة، وعبد الرحمن بن خلدون⁸. عاد إلى المغرب الأوسط بطلب من السلطان أبي عنان المريني سنة 753هـ / 1352م، فدرس لطلبة بجاية وهو في طريق عودته، مختصر بن حاجب في ظرف قصير ثم وصل تلمسان، فضمه أبو عنان إلى مجلس علمائه على غرار أبيه، واتخذ أستاذا له، وأخذ عنه علومًا كثيرة؛ كما التف حوله الكثير من الطلبة الذين صاروا علماء فيما بعد منهم : عبد الرحمن بن خلدون، وأخوه أبو زكرياء يحيى، وابن الصباغ المكناسي، وأبو عبد الله الشريف التلمساني، والشريف الرهوني، وابن مرزوق الخطيب، وأبو عثمان سعيد العقباني، وابن عباد، وابن عرفة التونسي، والمقري الكبير⁹.

نال الآبلي عند أبي عنان حظوة كبرى، فقربه منه وبجله، وصحبه معه إلى المغرب الأقصى، حيث واصل التدريس بفاس إلى غاية وفاته¹⁰.

شهادات بعض معاصريه :

لقد كان الآبلي من أنبغ علماء عصره في التعاليم، حيث ألم بعلوم كثيرة كالمنطق والحساب والهندسة والطب والفلاحة والفلسفة والتوحيد. ولمعرفة المكانة التي وصل إليها هذا العالم المعلم، نورد شهادات بعض معاصريه:

— قال فيه أبو زكريا يحيى بن خلدون وهو أحد تلامذته: " وشيخنا العالم الأعلى، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي، المعلم الأصغر... فاق أهل زمانه في العلوم العقلية كلها، حتى أني لا أعرف بالمغرب وبإفريقية فقيها كبيرا إلا وله عليه مشيخة " ¹¹ .

— قال عنه ابن مرزوق الجدي: "... شيخ المغرب في العلوم العقلية وإمام وقته " ¹² .

— وصفه تلميذه عبد الرحمن بن خلدون في كتابه - لباب المحصل في علوم الدين - بقوله: " هو سيدنا ومولانا الإمام الكبير، العالم العلامة فخر الدنيا والدين، حجة الإسلام والمسلمين، غياث النفوس... رضي الله عن مقامه، وأوزعني شكر نعمه؛ شيخ الجلالة وإمامها، ومبدأ المعارف وختامها... أفاض علينا سيب علومه، وحلانا بمنثور دره ومنظومه... " ¹³ .

مواقف الآبلي في مجال التعليم :

بالرغم من تكريس الآبلي معظم حياته في تدريس العلوم، إلا أنه كانت له مواقف من المدارس والتأليف والمختصرات؛ حيث أورد المقرئ الجدي موقف شيخه بقوله: سمعت شيخنا الآبلي يقول: " إنما أفسد العلم كثرة التأليف، وإنما أذهب ببيان المدارس... " ¹⁴ . فقد عارض بناء المدارس وانتشارها، لأنه يرى أن طلب العلم يتطلب بذل المال والجهد، بالرحلة إلى مراكز الإشعاع الفكري عبر الأمصار. فانتشار المدارس في كل الأصقاع حسب رأيه، سيجذب كل طامع في مرتباتها وجراياتها، مما ينعكس سلبا على الحياة التعليمية. كما أبدى عدم رضاه على التأليف، كونه بديل عن الرحلة التي هي أصل جمع العلم، فبقدر المشقة والبذل يكون التحصيل. وكان للآبلي موقف واضح من المختصرات، تجلّى في قوله: " إنها تؤدي إلى تجريد الأفكار التي تحملها من معانيها الحقيقية " ¹⁵ . لقد برر المقرئ موقف شيخه مما سبق بأن السلطة كانت مهيمنة على المدارس سيطرة شاملة؛ إذ تستخدم المدرسة في تكوين أجيال يكونون تبعاً لها. فهي التي تتولى تعيين هيئة التدريس، وتتصرف في إعطاء الرواتب للمدرسين والطلبة، ولا يمكن لأحد من أهل العلمولوج إليها إلا إذا رضي لنفسه الدخول في حكمهم، وأن من هم أجدر بذلك لا يدعون إليها؛ فنتج عن ذلك عزوف أهل العلم الحقيقيين عن الانضمام تحت رايتها، وفسح المجال لتولي مقاليد التدريس بهذه المدارس إلى من لا يحسن حتى الإلقاء ¹⁶ .

يبدو أن علاقة الآبلي غير الرضوية بالسلطين ساهمت في تكوين رأيه، ذلك أن السلطان أبو حمو موسى الأول أكرهه على ضبط أمواله، لكنه أبى وفر. وإذا كان الآبلي لا يرى جدوى من انتشار المدارس، فإنه كان هو وثلة من خيرة العلماء تخرجوا من مدارس تلمسان؛ مما يعني أنه رغم ما عرفتته المدارس من تدخل للسلطة في شؤونها، فلم تكن كلها أسيرة في يدها.

كما يبدو موقفه من المختصرات غريبا، إذا علمنا أنه كلف تلميذه عبد الرحمن بن خلدون بتلخيص كتاب "محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والفقهاء والمتكلمين" للرازي، وأخرجه تحت عنوان "لباب المحصل في أصول الدين" ¹⁷ . ولعل الهدف من هذا هو التيسير على طلاب العلم لا غير.

مؤلفاته :

بالرغم من سعة علمه وغزارة معارفه، ومزايا تعليمه وإقراءه، بشهادة شيوخه وتلامذته، إلا أنه لم يخلف أي أثر علمي مكتوب. ويعود عزوفه عن التأليف إلى مواقفه السالفة الذكر. يقول المقرئ أنه سمعه يقول: "التأليف نسخ الرحلة التي هي أصل جمع العلم، فكان الرجل ينفق فيها المال الكثير، وقد لا يحصل له من العلم إلا التزير اليسير، لأن عنايته على قدر مشقته، ثم صار يشتري أكبر ديوان بأجنس ثمن" ¹⁸. وإن لم يخلف كتباً، فقد تخرج على يديه علماء أجلاء، رفعوا لواء العلم من بعده، وظلوا منارات تشع في كل الأمصار، سائرين على دربه مقتفين أثره.

وفاته :

بعد مسيرة طويلة في طلب العلم واحتراف التعليم، توفي الشيخ الآبلي وهو لا يزال يث العلم بفاس على عهد السلطان أبي عنان المريني. كانت وفاته سنة 757هـ / 1356م ¹⁹.

خاتمة :

يمكن أن نقول في الأخير أن رأي الآبلي حول انتشار المدارس كان له ما يبرره، إذا علمنا أن السلاطين كان لهم إشراف مباشر على المدارس، كونهم هم من أنشأها وجهزها وتكفل بتعيين معلميها وتوفير أجورهم، بل وصل ببعضهم الحد أحيانا حسب صاحبي المعيار والعبر، إلى عزل معلم واستبداله بآخر دون سبب وجيه يستحق ذلك، أو التدخل من أجل إسكان طالب في المدرسة. وقد أدت هذه العلاقة بين السلطة والمدرسة إلى فتح المجال أمام أصحاب النفوذ، حتى صار التعليم في المدارس يسند لمن هو غير مؤهل لذلك، لقول صاحب نفع الطيب أنه صار يتعاطى الإقراء في المدارس من لا يعرف حتى رسالة أبي زيد القيرواني. لكن يبدو أن هذا الوضع لم يكن سائدا في جميع المدارس، حيث نجد مثلاً أن أبا عبد الله الشريف التلمساني الذي عاصر الآبلي، قد درس بالمدرسة اليعقوبية بتلمسان، وتخرج على يديه ثلة من كبار العلماء أمثال: الإمام الشاطبي وابن زمرك وابن خلدون وإبراهيم المصمودي وغيرهم. وبالتالي لا يمكن الاستغناء عن المدرسة، فلولاها لتقهقر العلم ولما استطاع الإنسان أن يصل إلى ما وصل إليه اليوم، بحيث نادرا ما نجد في عصرنا هذا حيا في قرى ومدن العالم يخلو من مدرسة.

الإحالات :

- ¹ - آبله : مدينة أندلسية ، تقع في الشمال الغربي لمقاطعة مدريد . ينظر : عبد الرحمن بن خلدون ، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1979 ، ص 79 .
- ² - هنين : مدينة صغيرة بناها الأفارقة . تبعد عن تلمسان ب 34 ميلا . كانت تتعامل تجاريا مع مدينة البندقية الإيطالية . كما كان بها ميناء هام في العهد الموحد . ينظر : حسن الوزان ، وصف إفريقية ، تحقيق محمد حجي و محمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط 2 ، ج 1 ، ص 15 .
- ³ - محمد بن محمد مخلوف ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، د ت ، ص 221
- ⁴ - عبد الرحمن بن خلدون ، العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و البربر و من عاصروهم من ذوي السلطان الأكبر ، ج 7 ، ضبط خليل شحاتة ، مراجعة سهيل دكار ، دار الفكر ، بيروت ، 2002 ، ص 376 .

- ⁵ - ابن مريم ، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان ، تحقيق محمد بن أبي شنب ، نشر عبد الرحمن طالب ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، ص ص 214 - 215 .
- ⁶ - التنبكي ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، ج2 ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 2003 ، ص 66 .
- ⁷ - هكسورة : قبيلة بجبل الأطلس في المغرب الأقصى . ينظر : عبد الحميد حاجيات ، الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان ، مجلة الأصالة ، العدد 26 ، 1975 ، ص 153 .
- ⁸ - يحي بوعزيز ، مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط ، دار الغرب للنشر و التوزيع ، وهران ، 2003 ، ص ص 96 - 97 .
- ⁹ - ابن مريم ، المصدر السابق ، ص 219 . - محمد بن محمد مخلوف ، المصدر السابق ، 221 . - عبد الحميد حاجيات ، المقال السابق ، ص 153 .
- ¹⁰ - محمد رمضان شاوش ، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة بني زيان ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995 ، ص 425 .
- ¹¹ - يحي بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ج1 ، تحقيق و تقديم عبد الحميد حاجيات ، المكتبة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1980 ، ص 120 .
- ¹² - يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص 99 .
- ¹³ - قدور وهراني ، الأبعاد الفكرية و السياسية لموقف الآبلي من اتخاذ المدارس بتلمسان ، مجلة الفكر الجزائري ، جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان ، العدد 4 ، ديسمبر 2009 ، ص ص 181 - 182
- ¹⁴ - الونشريسي ، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب ، ج2 ، تحقيق محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1981 ، ص 479 . التنبكي ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 414 ، ابن مريم ، المصدر السابق ، ص 216-217 ، المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج5 ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1968 ، ص ص 275-276 .
- ¹⁵ - ابن مريم ، المصدر السابق ، ص 184 .
- ¹⁶ - عبد الجليل قريان ، التعليم بتلمسان في العهد الزياني ، جسور للنشر والتوزيع ، ط1 ، الجزائر 2011 ، ص ص 169-171 .
- ¹⁷ - قدور وهراني ، المقال السابق ، ص 184 . 231 .
- ¹⁸ - ابن مريم ، المصدر السابق ، ص ص 216-217 .
- ¹⁹ - أحمد بن القاضي المكناسي ، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، ج1 ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، 1973 ، ص 231 .